دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

قصص مسيحية للحياة

- ٦ -

قصة استشهاد مؤثرة للغاية

الأب متى المسكين

دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

قصص مسيحية للحياة

— ٦ —

قصة استشهاد مؤثرة للغاية

للأب متى المسكين



أيقونتان قديمتان للشهيدتان بر بتوا وفيليسيتاس

حوادث هذا الإستشهاد الرائع مسرحها مدينة قرطاچنة بشمال أفريقا، سنة ٢٠٣م. في عهد «سبتيموس ساو يرس».

القصة تكتبها پر پتوا الشهيدة بخط يدها، ووصْفُ الإستشهاد يكمله مدرسها الخصوصي؛ وبقية القصة يرجِّح أن ترتليان هو الذي اختتمها. وقد وُجدت هذه المقدمة في بداية القصة:

[إن كانت أمثلة الإيمان هي بقصد الشهادة لنعمة الله، ولبناء الناس، حتى بقراءتها يحيا الماضي ليتمجد الله و يتشدد المؤمنون، فلماذا لا نرى أمثلة جديدة نظير هذه حتى يستمر تمجيد الله وتشديد المؤمنين؟ لأن هذه الأمثلة التي نرويها ضرورية للأجيال الصاعدة، ولكن ستأتي أيام يُنظر إليها أنها أحداث عتيقة، تحيطها هالة من الوقار تحجز الناس عن الإقتداء بها.

ولكن ليت الذين ينظرون إلى قوة الروح القدس كأنها مرتبطة بالأزمنة والأوقات والمواسم يتذكرون قول الوحي: إنه في أواخر الأيام ينبغي أن يترقبوا أعمال الروح بأكثر غزارة: «لأنه في الأيام الأخيرة يقول الرب سأسكب من روحي على كل بشر».

إذن، فنحن نتطلع بالحري إلى الجديد من قوات الروح القدس بكل وقار، عالمين حسب الوعد أنها لتجهيز وإعداد الكنيسة التي خصَّها الروح بالعطايا، لهذا نحن نقدم هذه القصة لتُعرف وتُشتهر في كل الأقطار، ليتمجد الله (الكاتب هنا يعيش في حوالي سنة ٢٠٣ ميلادية، و يعتبر أن حوادث الرسل هي القديمة، أما حوادث قصة استشهاد پر پتوا سنة ٢٠٣ فهي حديثة بالنسبة لجيله، لذلك فهو

يقدمها لجيله كأنها آخر شهادة جديدة).

وبهذه القصة لا يعود ذوو الإيمان الضعيف أو اليائسون يتوهمون أن أعمال النعمة الفائقة سواء كانت بالإستشهاد أو بالإستعلان هي من أعمال الماضي فقط، لأن الله سيظل إلى الأبد يتمم ما وعد به، أما عمله فيكون دائماً لغير المؤمنين شهادة وللمؤمنين نعمة فإن «الذي رأيناه بعيوننا الذي شاهدناه ولمسته أيدينا... هذا نخبركم به» أيها الإخوة والأولاد، حتى تكون لكم أنتم أيضاً الذين شاهدتم هذه الأمور عينها ذكرى دائمة لتمجيد السيد الرب، أما أنتم الذين تسمعونها الآن بخبر الأذن فقط فيكون لكم بها «شركة» مع هؤلاء الشهداء القديسين وشركة بواسطتهم أيضاً مع الرب يسوع المسيح الذي له المجد والكرامة إلى الأبد آمين].



القديسة بربتوا

رسم منقول عن رسم حائطي (من القرن الرابع)، وُجد في قبة بازيليك (كنيسة ملكية) القديس مارمرقس في منطقة بالبين في إيطاليا. الرسم يحوي على جانبيه منظراً من رؤيا «السلم والصراع مع الشيطان».

بداية القصة

تم القبض على جماعة من الموعوظين الأحداث منهم ريفوكاتوس وتابعته العبدة فيليستاس وساتورنينوس وسيكونديولاس، وكان بينهم امرأة من عائلة شريفة ومثقفة تدعى ڤيبيا پرپتوا، تزوجت برجل شريف، وكانت تعيش مع والديها وأخوين لها، أحدهما مثلها موعوظ(١) حديث. وقد رزقها الله بوليد كان يرضع على صدرها، وهي لم تكن تناهز أكثر من اثنين وعشرين عاماً، وقصة استشهادها تبدأ بخط يدها هكذا:

[وعندما كنت لا أزال مع جماعتي ــ التي أُمسِكَت حديثاً ــ جاءني والدي منفعلاً ــ من جراء شدة عاطفته نحوي ــ محاولاً زعزعتي وتحطيم عزيمتي فبادرته:

«أبي! أترى هذه القُلَّة التي تحوي الماء أمامك؟»

فقال لي: «نعم أراها»...

فسألته: «هل يمكن أن تغيِّر القُلَّة اسمها؟»

فأجابني: «طبعاً لا»...

فبادرته: «هكذا أنا أيضاً لا يمكن أن أُدعى بغير اسمي، مسيحية!!»

وعندما وقعت كلمة «مسيحية» على أذني والدي، هاج واندفع نحوي كأنما يود تخزيق عينيَّ؛ ولكنه جمد واكتفى بإهانتي إذ انحلت قوته عندما اقترب مني، كما انحلت كل حججه الشيطانية!

المعمودية إعداد للآلام:

وأخذوني بعيداً، ففارقت أبي إلى عدة أيام، وشكرت الرب على ذلك إذ شعرت

---

(١) الموعوظ هو طالب العماد ليصير مسيحياً. وكان له مكان خاص و برنامج خاص بالكنيسة من أجل إعداده لنوال نعمة الحياة الجديدة.

براحة ونشوة في غيابه. وفي هذه الأيام القليلة عمَّدونا جميعاً، وتقبَّلت أمراً من الروح القدس أن لا أهتم بشيء قط بعد خروجي من الماء المقدس سوى تحمُّل الآلام الجسدية!!

ولم يَطُلْ علينا الوقت، فبعد أيام قليلة أُودعنا السجن، فاعتراني في البدء خوف شديد إذ لم يسبق لي قط الوجود في هذا الظلام... ياله من يوم مرعب... الحرارة فظيعة لا تُطاق!... إني أتعزى بالجماهير المزدحمة... ولكن ما أقسى أيدي الجنود... قلقي يمزقني بسبب غياب آبني الرضيع...

لقد تدخل الشماسان المباركان ترتيوس و يومبونيوس اللذان كُلفا بخدمتنا ــ ودفعا شيئاً ــ فنقلونا لعدة ساعات إلى مكان أفضل داخل السجن، لنلتقط أنفاسنا. وأخيراً خرج الكل وانفضت الجماهير و بقينا وحدنا...

رضيعي معي في السجن:

لقد أحضروا لي آبني الرضيع الذي كان مغشى عليه من الجوع، فأرضعته وسلَّمته لأمي وقد أوصيتها عليه بحرارة... وشجعت أخي الآخر وأوصيتهم جميعاً على آبني!...

وقد اعتراني اكتئاب شديد لما وجدتهم في حسرة وغمٍّ من أجلي... وقد ظللت أعاني من القلق والإكتئاب عدة أيام، وأخيراً حصلوا لي على إذن بدخول رضيعي معي في السجن. وفي الحال استعدتُ قواي وفارقني القلق والإكتئاب، فصار السجن في نظري كأنه قصر، و وددت أن أبقى فيه أفضل من أي مكان آخر.

وجاءني أخي قائلاً: «أختي الحبيبة، أنتِ الآن في كرامة عظيمة تؤهلك أن تصلي من أجل رؤيا، فاطلبي حتى نعرف هل سينتهي الأمر بإطلاقك أم بتعذيبك».

وإذ كنت أعلم أني فعلاً عندي كلمة الرب الذي من أجله قد صرت هنا، أعطيته وعداً بثقة: «باكراً سأعطيك الكلمة»! وتضرعت إلى الرب، فظهر لي الآتي:

الرؤيا الأولى: عن الصراع مع الشيطان:

رأيت وإذ بسلم نحاسي، طوله عجيب، يمس السماء، ولكنه من الضيق بالقدر الذي لا يسمح إلا لواحد فقط بالصعود عليه، وعلى جانبي السلم أسلحة حديدية مدججة من كل نوع: سيوفٌ ومديٌّ وخناجر وخطاطيف، حتى إذا كان أحد يغفل أثناء صعوده، أو لا يُثبِّت نظره إلى فوق دائماً، فإنه حتماً يتمزق بهذه الأسلحة.

وفي نهاية السلم من أسفل يربض تنين ضخم يتربص بالصاعدين و يزعجهم ليعرقل صعودهم.

ورأيت وإذا ساتورس يصعد في الأول باذلاً نفسه عنا بمحض حريته، ولا عجب فإيماننا جميعاً كان من صُنع يديه مع أنه لم يكن حاضراً وقت أن تم القبض علينا، ورأيته صاعداً حتى بلغ نهاية السلم ثم انحنى والتفت إليَّ قائلاً: «بربتوا، أنا في انتظارِكِ ولكن احترسي من التنين حتى لا يؤذيكِ». فأجبته: «إنه لن يؤذيني، باسم يسوع المسيح».

فأدار التنين رأسه عني وكأنه في ذعر مني. وإذ بي بدل أن أضع رجلي على أول درجة أضعها على رأس التنين وأعبر منها إلى السلم وأصعد عليه.

والتفتُّ وإذا بحديقة متسعة وفي وسطها إنسان جالس، شعره أبيض، وعليه لباس الرعاة، وكان فارع الطول، ورأيته ينحني ليحلب غنمه، وكان حوله ألوف متسربلين بثياب بيضاء. فرفع الراعي رأسه ونظر إليَّ وكلمني: «حسناً جئتِ يا بُنيَّة». ودعاني نحوه وأعطاني قليلاً من اللبن الذي حلبه فمددت يديَّ المربوطتين وأمسكت بالوعاء، وشربت، فإذا بكل الجمع الواقف يقول معاً: «آمين»... وعلى صوت الكلمة استيقظت، وما يزال في فمي شيء حلو كالعسل.

وفي الحال دعوت أخي وأعْلَمْتُه بالرؤيا، فعرفنا أننا لابد سنتألم، وحينئذ فقدنا الأمل في هذا العالم.

وبعد أيام قليلة ذاع خبر أننا قادمون على امتحان شديد.

محاولات أبي:

وفي هذه الأثناء جاء أبي من المدينة معييً من الهمِّ، وصعد الجبل الذي عليه السجن، ودخل ليرانا محاولاً بيأس أن يزعزع عزيمتي، وبادرني بحزن:

«يا ابنتي، ارحمي شيبتي، أشفقي على أبيكِ، إن كنت استحق ــ بعدُ ــ أن أُدعى أباً لكِ في نظرك. لقد حملتك ونشأتك بهاتين اليدين، لقد أحببتكِ وميَّزتك على كافة إخوتك، لا تسلميني إلى مذمة الناس وفضيحتهم، أُذكري أمك وإخوتك وخالاتك وابنك الرضيع الذي لن يستطيع أن يعيش بدونك. انزعي كبرياءك، لا تحطمي نفوسنا جميعاً فلن يستطيع أحد منا أن يرفع رأسه أو يتكلم بحرية بسببك إذا أصابك شيء».

وظل يتكلم بحرقة وهو يُقبِّل يدي، وأخيراً ارتمى على رجلي وبكى وهو يخاطبني بلقب «سيدة»...

وقد حزنت أشد الحزن عليه لأنه الوحيد في عائلتي الذي لم يسعد ولم يفرح بتعذيبي. فابتدأت أُعزِّيه:

«إعلم يا أبي أن كل ما يحدث هنا هو حسب مشيئة الله، وتأكد جداً أننا لا يمكن أن نتصرف حسب مقدرتنا فنحن واقعون تحت قدرة الله».

فتركني وهو مهموم حزين كسيف البال...

المحاكمة:

وفي يوم، بينما نحن نتناول وجبة الظهر أخرجونا بعجلة إلى سوق المدينة، لكي يمتحنونا. ووصلنا إلى مكان السوق، وإذ عُلم الخبر، تجمع شعب غفير. وأوقفونا على رصيف عال، وبدأوا يستجوبوننا، فاعترف كثيرون بالإيمان. وجاء دوري، وإذ بي ألمح أبي واقفاً قُبالتي حاملاً ابني الرضيع واقترب مني حتى صار على بُعد خطوة وناداني: «ارحمي رضيعك»!... وإذ بالقنصل هيلاريان الذي كان قد تسلم سلطان الحكم

بالموت أو بالحياة على كل المسجونين خلفاً للوالي مينوسيوس تيمينانوس يقول لي:

«إشفقي على شيخوخة أبيكِ، وارحمي رضيعك الصغير وقدّمي ذبيحة عن سلامة الإمبراطور»...

فأجبته على الفور: «كلا»!...

فسألني: «هل أنتِ مسيحية؟»...

فأجبته على الفور: «نعم»!...

ولما حاول أبي أن يقتحم الحديث ليثنيني عن عزمي، أمر هيلاريان أن يُطرح بعيداً. فألقاه العسكر على الأرض وضربه القاضي بالعصا! فارتجت نفسي بسبب الورطة التي وقع فيها أبي وكأن العصا وقعت على رأسي أنا؛ وحزنت غاية الحزن بسبب ما أصابه وهو في كبر أيامه.

الحكم:

وحينئذ وقف هيلاريانوس ونطق بالحكم على جميعنا. وكانت العقوبة أن نُطرح كلنا للوحوش! فخرجنا كلنا بفرح وتهليل واستُودعنا السجن.

فلما عدت أطلب ابني لأرضعه، عاد إليَّ پومپونيوس الشماس يخبرني أن أبي رفض أن يعيده إليَّ. وكأنها إرادة الله، فلا الطفل عاد يطلبني، ولا صدري عاد يُدرّ اللبن!... فتوقف قلقي في الحال وزال الألم الذي كان يعاودني في صدري من جراء انحباس اللبن.

• • •

الرؤيا الثانية: عن دينوكراتس والصلاة من أجله:

وبعد أيام بينما كنا كلنا واقفين نصلي، فجأة نطقت بصوت عال اسم دينوكراتس، واندهشت للغاية إذ أنه لم يخطر على بالي قط حتى هذه اللحظة، وإذ بي أشعر بحزن من أجله بسبب ما اعتراه. وفي الحال رأيت وكأنما أعطيت الفرصة والتزام التضرع من أجله، فابتدأت أصلي بحرارة عنه و بكيت كثيراً لدى السيد الرب، وفي مساء اليوم عينه رأيت

الآتي :

«رأيت دينوكراتس قادماً من مكان مظلم، يحيطه الظلام من كل جهة، وهو في حُمّى، وملتهب عطشاً، ووجهه شاحب ومكمد، والجرح الذي في وجهه الذي مات به لا يزال كما هو. ودينوكراتس هو أخي بالجسد الذي كان قد مات وهو بالغ من العمر سبع سنوات بغنغرينا شديدة في الوجه جعلتنا كلنا نمتلىء وجعاً عليه.

ولما بدأت صلاتي كان يفصلني عنه هوة سحيقة، فكان عسيراً على كل منا أن يأتي للآخر، وكان بالقرب منه فسقية مملوءة ماءً ولكن حافتها كانت أعلى من رأس دينوكراتس، فلما وقف على أصابع رجليه لكي يشرب لم يستطع، فحزنت لأن الفسقية كانت مملوءة ماءً، و بالرغم من ذلك لم يتمكن من الشرب منها».

واستيقظت فعلمت أن الولد في ضيقة عظيمة، غير إني كنت واثقة أني قادرة على إنقاذه من ضيقته. فعكفت في الحال على الصلاة من أجله كل يوم حتى نقلونا من السجن الذي كنا فيه إلى حصن السجن، لأنه كان مفروضاً أن نُقدَّم إلى الوحوش في ملعب ساحة السجن يوم عيد ميلاد جيتا بنت القيصر، ولكني ظللت أصلي من أجله ليل نهار بنحيب ودموع حتى يمنحه الله لي.

إستجابة الصلاة:

و بينما كنا فى حظيرة التخشيبة والوقت نهار رأيت الآتى :

«كان نفس الموضع الأول الذي رأيته ودينوكراتس يبدو بجسد مغسول نضير، متسربلاً بثوب جميل ومبتهج النفس، ومحل الجرح العميق الذي كان في وجهه رأيت مجرد ندبة. وإذا بالفسقية تنخفض له حتى صارت على مستوى وسطه والماء يتدفق منها بدون انقطاع، وعلى الحافة قصعة من ذهب مملوءة ماءً، فجاء دينوكراتس وشرب منها كثيراً والماء بقي كما هو لم ينقص منها. و بعد أن شرب كفايته تقدم نحوي و بدأ يطفر بفرح

كالأطفال. فاستيقظت وعلمت أنه قد عُفي عنه»!

• • •

وبعد أيام ابتدأ بيودينس رئيس أركان الجيش المتولي شئون السجن أن يقدم لنا شيئاً كثيراً من الإكرام عندما أحس بنوع القوة العظيمة التي كانت فينا، وصرَّح لكثيرين بزيارتنا قاصداً الترويح عن أنفسنا.

ولما اقترب يوم الإستعراض زارني أبي في السجن، وكان معيىً من الهم، وابتدأ ينتف شعر لحيته ويرميه على الأرض. وألقى بنفسه على الأرض ووجهه في التراب وأخذ يلعن سنين حياته ويقول كلاماً صعباً نكَّد به على الدنيا كلها من حولنا. فتأسفت جداً في نفسي على عدم سعادة شيخوخته.

• • •

الرؤيا الثالثة: عن المعركة الفاصلة:

وفي اليوم السابق ليوم مصارعتنا مع الوحوش رأيت في رؤيا: وإذ بومبونيوس يقرع على باب السجن بشدة، وذهبت وفتحت له، فرأيته متسربلاً بثوب أبيض ولكن بدون مِنْطقة، وفي رجليه حذاء عجيب الصنع، وابتدرني: «بربتوا، نحن في انتظارِكِ تعالي...»

وأخذني بيدي وابتدأنا نعبر على قرى وبلاد مخربة. وبعد لأْيٍ وجهد شديدين، بلغنا أخيراً مسرحاً للمصارعات، وقادني حتى منتصف ساحته وقال لي: «لا تخافي أنا هنا معك وسوف أتألم مثلك، وتركني...»

ثم رأيت جمعاً عظيماً يرقبونني بلهفة، وإذ كنت أعلم في نفسي أني محكوم عليَّ بمصارعة الوحوش، اندهشت لما رأيت الساحة خالية من الوحوش. ولكن رأيت إنساناً جباراً جافي الوجه مع أعوان له يتربصون لمحاربتي، ولكن جاءني بالمثل جماعة من الشباب النِضَار لمساعدتى. وإذ بي أنسلخ عن شكلي فأصير رجلاً والذين معي بدأوا يدهنون

جسدي بالزيت كما يُصنع بالذين يدخلون المعركة، وكان الجبار يدور على الرمال متأهباً أمامي.

ورأيت وإذا رجل قد دخل الساحة، عظيم للغاية، ومتسربل بثوب قرمزي وفي رجليه حذاء من ذهب وفي يده قصبة و بالأخرى غصن أخضر به تفاح من ذهب ونادى مثل حَكَمٍ قائلاً: «إذا غلبها الجبار يقتلها بسيفه وإذا غلبته فلها هذا الغصن وتفاح الذهب»، وانتحى جانباً.

فاقترب نحوي الجبار، أما أنا فأقدمت عليه وضربته بقبضة يدي، فبادلني الضرب وحاول أن يمسك رجلي، أما أنا فطفقت أضرب وجهه بكعبَي رجلي وأحسست أني أرتفع في الهواء، فأصبحت فوقه أضربه وكأني لست على الأرض.

ولكي لا تطول المعركة، أخذت أضربه بكلتا يديَّ ولما قبضت على رأسه ودفعته سقط على وجهه، فأسرعت ودست على رأسه. فبدأ الشعب يهتف لي، أما معاونيَّ فكانوا ينشدون بالمزامير، وتقدمت إلى الحَكَم وتسلمت الغصن ذا التفاح، وأعطاني إياه قائلاً: «سلامٌ لكِ يا بُنيَّتي»؛ فخرجت بانتصار صوب الباب وكان مكتوباً عليه: «باب الحياة». ولما استيقظتُ، علمتُ أني قادمة في الحقيقة ليس لمصارعة وحوش وإنما لمصارعة الشيطان نفسه! ولكني كنت واثقة أني منتصرة!...

هذا كتبته قبل يوم الإستعراض].

■ ■ ■

هذه هي الرؤيا المعروفة التي كتبتها بيدها بربتوا الشهيدة المطوبة. وقد كتبتها قبل يوم الإستعراض.

استشهاد سيكونديوس، وفيليستاس تتفرغ للإستشهاد:

[أما بخصوص سيكونديوس، فالرب دعاه للرحيل مبكراً بينما كان لا يزال في

السجن ــ لا كأنه بدون مجد من النعمة ــ إذ أُعفي من مصارعة الوحوش، لأن جسده قد تعرّف على حد السيف!!

وأما بخصوص فيليستاس فقد افتقدتها نعمة الله هكذا:

لما كانت حاملاً وهي في شهرها الثامن، عندما قُبض عليها، كانت كلما اقترب يوم الإستعراض تزداد حزناً بسبب خوفها الشديد لئلا يتعطل استشهادها، بسبب كونها حاملاً ــ لأن القانون الروماني يحرم عقوبة النساء إذا كنَّ حوامل ــ وكانت تخشى أن يُسفك دمها الطاهر في مناسبة أخرى ربما تكون بين فعلة الشر.

وكان الشهداء زملاؤها في قلق عميق عليها لا يريدون أن يتركوا وراءهم رفيقة صالحة سارت كل الطريق معهم على نفس الرجاء!...

فاجتمعوا معاً وأخذوا يبكون بصلاة منسكبة أمام السيد الرب يومين كاملين من أجلها قبل الإستعراض. وقد حدث بعد صلاتهم مباشرة أن أحست فيليستاس بوجع المخاض ينقلب عليها، ولأن الولادة في الشهر الثامن أمر خطر لذلك عانت فيليستاس آلاماً مبرِّحة. وعندما قالت لها إحدى القابلات باستهزاء: «أنتِ تتألمين الآن هكذا، فماذا أنتِ فاعلة عندما يلقونك للوحوش؟»، تحاملت على نفسها وأجابتها بهذا القول: «الآن أنا أتألم ما أتألمه ولكن فيما بعد سيكون فيَّ من سيتألم عني، لأني اشتقت أن أتألم من أجله». وقد وضعت طفلة فأخذتْها في الحال أُخت مُحبة كانت واقفة وتبنَّتها لنفسها!...

عشاء عيد الحرية!!

وفي اليوم السابق للإستعراض مباشرة، بينما كانوا يقيمون الإحتفال «بالعشاء الأخير»، الذي كانوا يسمونه (بالنسبة للشهداء) **عشاء عيد الحرية** ــ ولم يكن عيداً بالمفهوم المعتاد إنما كانت مائدة محبة ــ كانوا يتحدثون مع الناس الذين تجمعوا حولهم،

بقوة عزيمة ليحذروهم من دينونة الله موبخين فضولهم ومعلنين سعادة نصيبهم في قبول الآلام (من أجل الرب). وكان ساتيوروس يقول لهم: «إن غداً لن يفرحكم فسوف ترون فيه ما لا تشتهون، نحن نبدو أصدقاءكم اليوم أما غداً فستظنوننا أعداء فانظروا إلى وجوهنا الآن جيداً حتى تتعرفوا علينا باكر». فخجل الواقفون وانفضوا عنهم وكثير منهم أعلن إيمانه!

ولما أشرق فجر يوم انتصارهم، حملوهم من السجن إلى ساحة الملعب، فكانوا متهللين كأنهم في طريقهم إلى السماء وعلى وجوههم مسحة النعمة وفرحتها. وكانت بربتوا تتبعهم بخطوات خفيفة مشرقة كعروس كاملة للمسيح وكحبيبة لله، تغض الطرف بحياء النعمة إزاء حملقة الجماهير في وجهها، إنما بروح عالية...

أما فيليستاس فكانت مبتهجة إذ وضعت بسلام فصار لها مشتهاها أن تُلقى للوحوش، فخرجت من دم إلى دم!! ومن يد القابلة إلى يد الجلاد!! وهكذا نالت هذه المغبوطة بدم المعمودية الثانية تطهيراً من دم الولادة!!

شجاعة العدالة:

وعندما أشرفوا على الباب أمروهم أن يرتدوا الملابس المخصصة (إمعاناً في الإستخفاف بهم)، فالرجال يرتدون زي كهنة ساتورن، والنساء يرتدين زي مكرسات سيريس، فانبرت لهم بربتوا النبيلة وقاومت هذا الأمر بإصرار حتى النهاية وقالت: «نحن أتينا إلى هذا الإستعراض بمحض إرادتنا حتى لا تُهان حريتنا، وقد جعلنا حياتنا رهن هذه الحرية فلن نعمل هذا العمل وهذا شرطنا معكم!» وهكذا انصاعت عدم العدالة تحت وطأة شجاعة العدالة!! فأمر الضابط المكلّف أن يُسمح لهم بدخول الساحة بملابسهم العادية كما هم!

فدخلت بربتوا أولاً وهي تنشد مزمور الغلبة، وكأنها تطأ رأس الجبار، ومن ورائها ريفوكاتوس وساتورنينوس وساتيوروس ينذرون المتهكمين عليهم بقصاص الله، ولما أشرفوا

على منصة هيلاريان، قالوا له في وجهه: «أنت تحكم علينا اليوم، والله سيدينك». فاستثارت تحدياتهم هياج الجماهير، فهتفوا يطالبون بتعذيبهم بالسياط قبل إلقائهم للوحوش، فكان رد الفعل عند الشهداء مزيداً من الفرح والتهليل إذ كسبوا بهذا نصيباً آخر في آلام الرب!

شهوات الشهداء:

وكأنما الذي قال: «اسألوا تُعطَوا»، قد تسمَّع إلى اشتياق قلوبهم، وأجاب مطلبهم، فمنحهم أن يموتوا كل واحد بالموت الذي كان يشتهيه!

لأنهم بينما كانوا يتسامرون فيما بينهم عن آمالهم في طريقة استشهادهم قال ساتورنينوس إنه يود لو يطوف على كل الوحوش، طمعاً في أن يلبس إكليلاً أفضل!! وهذا ما تم له بالفعل، ففي بداية العرض أخرجوا عليه النمر الأسود، وهو أشرس الوحوش، ولكن النمر جفل منه وأبى منازلته، وأخيراً حظي بلطمات هارسة من الدب جعل جسده يتناثر على الرصيف...

أما ساتوروس إذ كان يكره الدب اشتهى أن ينطلق بعضة واحدة من النمر، فلما أطلقوا عليه الخنزير البري المتوحش هجم الخنزير على مروض الوحوش وافترسه، أما ساتوروس فلم يُصَبْ فجرُّوه. ولما أعادوا تقديمه إلى الدب رفض الدب أن يتحرك من مكانه... وهكذا خرج ساتوروس لثاني مرة دون أن يُصاب.

شهيدات عفيفات حتى وقت استشهادهن:

أما بربتوا ورفيقاتها فقد أعدَّ لهن الشيطان بقرة أنثى متوحشة مجنونة أبقاها العدو لهن، فحينما طرحوا النساء إليها، وهن عرايا ملفوفات في شباك، ارتاع الجمهور من المنظر إذ رأوا سيدة صغيرة لا تناسب الموقف وامرأة يتساقط اللبن من ثدييها، فصرخ كل الشعب من هول المنظر؛ وحينئذ اضطر المسئولون أن يسحبوا النساء جميعاً و يغطوهن كلاً برداء يستر جسدها ثم ألقوهن للوحوش، وكانت بربتوا أول من ضربتها البقرة فألقتها على جنبها

ومزقت رداءها ، فتساندت الشهيدة وحاولت أن تضم أطراف الرداء الممزق لتستر نفسها فكانت في موتها لا تقل اهتماماً بعفتها من حياتها !

وأشارت إلى الواقفين تطلب دبوساً وأصلحت شعرها ، وكأنما عروس المسيح لا ينبغي أن تستشهد وهي غير مهندمة ، أو حتى لا يُظن بها أنها تنوح في ساعة الغلبة والمجد .

الصراع :

ثم تساندت بر بتوا حتى وقفت على قدميها والتفتت تطلب فيليستاس التي كانت قد صرعتها البقرة المتوحشة حتى رضضت جسدها ، ولكن بمساعدة بر بتوا تحاملت على نفسها حتى وقفت ، فوقفت الإثنتان معاً تتساندان على بعضهما . وقد أعانهما قليلاً الموعوظ روستيكوس الذي كان واقفاً بجوارهما ، ولما أفاقت بر بتوا إذ كانت في حالة غيبوبة روحية بدأت تنظر حولها وتسأل : « أين البقرة ومتى يدفعوننا إليها ؟ » ، وعندما أخبروها أنها قد صارعت البقرة فعلاً ، لم تصدق ، لولا أنها أحست بجسدها الممزق وملابسها الملطخة بالدم . وحينئذ نادت أخاها وقالت له : « إثبتوا في الإيمان وأحبوا بعضكم بعضاً ولا تجزعوا من آلامنا » .

أما ساتوروس فوقف يستحث بيودينس رئيس السجن قائلاً : « ها إن كل ما توقعته قد حدث فلم يقبل أيُّ وحش أن يؤذيني ، ولكي تصدقني فأنا سأذهب بنفسي إلى النمر ، وسترى أنه بعضة واحدة ينتهي كل شيء » .

وقبل نهاية العرض بلحظة أطلقوا النمر وإذا به يهجم على ساتوروس و يعضه عضة واحدة ، فسقط مضرجاً بدمائه ، والشعب يهتف لمعموديته الثانية : « طوبى لك ، حميماً مقدساً ، طوبى لك ، حميماً مقدساً » . نعم طوباه بالحقيقة إذ نال حميماً بهذا الوصف !! وفي نَزْعِه كان يهتف برئيس السجن بيودينس — وهو مسيحي — « وداعاً احفظ إيماني وذكراي عندك ولا تدع تعذيبي يعرقل إيمانك بل ليته يشددك » . وطلب خاتم بيودينس وغمسه في دمه الطاهر وألقاه له « **كميراث إيمان** » ! وحملوه مغشياً عليه إلى المكان المعد

للإنهاء على جميعهم بحد السيف!

وقد طلب الجمهور أن يكون ذلك المكان مكشوفاً ليشتركوا مع المذبوحين برؤ يا العين حتى يستطيعوا أن يقدموا لهم النظرة الأخيرة! وقد قام الشهداء جميعاً في الوسط تلبية لرغبة الجماهير، ووقفوا أمامهم وقبّلوا بعضهم بعضاً حتى يكملوا شهادتهم بطقس «الصلح» (ما يسبق رفع الذبيحة في القداس الإلهي).

وأخيراً، الشهادة:

و بدون أي حركة، تقدم الجميع الواحد تلو الآخر، وفي هدوء وصمت تقبّلوا السيف على رقابهم، ولكن ساتوروس كان أول من تقبّل حد السيف وفي صمت عظيم أسلم الروح كما سبق وتنبأت له پر پتوا في الرؤ يا أنه سيكون أول من يتسلق السلم!... ووقف هناك هناك في أعلى السلم ينتظر پر پتوا!

وقد تميزت پر پتوا بجزء أوفر من الآلام إذ ضربها السيف في مكان العَظْمة، فصرخت، وأشارت بيدها إلى الجلاد — الذي كانت ترتعش يده بالسيف — إلى مكان الذبح في رقبتها!

• • •

حقاً قد كانت پر پتوا امرأة عظيمة، وليس عبثاً كان يرتعب منها الشيطان حتى أنها لم تمت إلا حينما شاءت وكيفما شاءت!

يا للشهداء الشجعان السعداء...
يا للمدعوين والمختارين حقاً لشركة المجد مع يسوع المسيح...

أما كل من يريد أن يعظّم و يكرّم و يعبد المسيح، فعليه أن يخبر بهذه الأمثلة فهي ليست أقل مجداً من الذي حدث قديماً، حتى بهذه الأمثلة الجديدة (٢٠٥م)، فنحن يمكننا أن نشهد للحق الواحد الذي في الروح القدس الذي يعمل حتى الآن مع الآب الله

القادر على كل شيء ومع أبنه يسوع المسيح ربنا الذي له المجد والقوة بلا قياس إلى الأبد آمين].

انتهى

□

● يا إخوة، إن بربتوا الشهيدة كانت تعتبر مسيحيتها شيئاً غير منفصل عنها، شيئاً تعيشه وتحيا به، فلم يستطع أبوها أن يزحزح إيمانها أو عزيمتها، مع أن إيمان بربتوا كان حديث العهد، فقد تعمدت بعد القبض عليها وقبل استشهادها بأيام قليلة، ولكن كان الإيمان بالمسيح عند بربتوا قد بلغ معياره الصحيح، ومعياره الصحيح دائماً هو قبول الإستشهاد!!

● يا إخوة، افتحوا آذانكم لصوت الروح القدس الذي تكلم في قلب بربتوا بعد عمادها فقد قال لها: «منذ الآن لا تهتمي للحياة بل للموت»!! وهو نفس صوت السيد الذي قال لنا: «من أراد أن يخلّص نفسه يهلكها، ومن أهلك نفسه من أجلي يجدها»... وما معنى هذا؟... معناه أن سعينا الكثير لتوفير الراحة والأمان والإطمئنان للحياة الجسدية يشقينا ويفسدنا، أما اهتمامنا الروحي بإماتة شهواتنا واحتمال آلام وضيق الحياة من أجل يسوع المسيح يخلصنا ويسعدنا!...

● يا إخوة، بربتوا سلمت رضيعها لتذهب وتستشهد، لم تشفق على أمومتها. لقد قدمت بربتوا عاطفة الأمومة وذبحتها على مذبح الإيمان والشهادة، هذا أقصى تعبير عن سمو الإيمان فوق الجسد، ونصرة الروح على العاطفة!... يهوذا باع المسيح بثلاثين من الفضة وبربتوا باعت نفسها وجسدها ودمها وروحها وأبنها وأسرتها لتشتري رضى المسيح وحبه!...

أنظر أنت إلى أي الطريقين تنتمي؟...

• يا إخوة، أنظروا هذه الشهيدة واعلموا أن دم الشهادة يفتدي، يفتدي من الموت. لقد افتدت بربتوا واحداً من الموتى رفعته بصلاتها من الظلمة وأهّلته بدموعها لغسيل النعمة، وبتوسل دمها وصراخها شرب ماء الحياة وعاد إليه الفرح... وافهموا واعلموا أن شفاعة شهداء المسيح عظيمة، لأن دمهم يتكلم بدالة أمام الله.

• يا إخوة، إن رؤية بربتوا صادقة، فالآلام التي نعانيها في هذا الدهر وكل تعاذيب الأشرار وأوجاع الجسد هي من حسد العدو وهي في حقيقتها مصارعة مع قوات الجحيم التي تجاهد ضدنا لنيأس حتى يُنتزع إكليلنا، فاثبتوا ولا ترتاعوا وإله السلام يسحق الشيطان تحت أرجلكم سريعاً!...

• يا إخوة، عجبي على فيليستاس العبدة التي ضارعت سيدتها في إيمانها وشجاعتها وعزمها وتصميمها، أنا منذهل من التي اشتهت أن تلد سريعاً لتتفرغ للإستشهاد، أبهذا المقدار صار الإستشهاد أعظم من البنين والبنات؟! والموت من أجل المسيح بالعذاب والتمزيق أسعد من حمل الأطفال على الصدور؟!... آه يا يسوع يا لك من إله عجيب تستطيع أن تسلب القلوب والعواطف حتى قلوب الأمهات المرضعات!...

• يا إخوة، أنظرتم كيف تقدم هؤلاء الشهداء للوحوش بمزامير الفرح، والنعمة على وجوههم مشرقة، وخطواتهم خفيفة ثابتة؟ ثم أنظرتم كيف بعد آلام وتمزيق الوحوش وقفوا صامتين هادئين ينتظرون دورهم في الذبح؟ أتريدون أن تعرفوا ما هو سِرُّ ثباتهم؟ ... هو محبتهم للمسيح حباً أقوى من الموت!!

قصص مسيحية للحياة

للأب متى المسكين

صدرت في بين دفتي كتاب واحد، وتصدر في كتيبات منفصلة. وترتيبها كالآتي :

١ــ سفراء من العالم الآخر
٢ ــ يوم خالد من عمر البشرية ، في زقاق المسيحيين
٣ ــ قصة استشهاد الرسولين بطرس و بولس
٤ ــ النيروز وذكرى أيام الشهداء
٥ ــ أيقونة جميلة
٦ ــ قصة استشهاد مؤثرة للغاية
٧ ــ قصة طهارة واستشهاد بارع
٨ ــ القديس فوكا البستاني
٩ ــ فلسفة الموت عند شهداء مصر
١٠ ــ أُولوجيوس والمقعد الرذيل
١١ ــ المحارب العجوز
١٢ ــ تاييس إمرأة الأساطير
١٣ ــ القديسة ميلانية العجيبة
١٤ ــ صلاة فلاح
١٥ ــ إتّباع المسيح وبهرجة الفلسفات

قصص مسيحية للحياة

• بأسلوب قصصي مناسب لكل قارئ تُقدِّم هذه المجموعة ١٥ قصة شيقة، بعضها مؤلَّف، ويعتمد في روايته على أسفار الكتاب المقدس وكتابات الآباء الأولين وتحقيقات المؤرخين القدامى مسيحيين وغير مسيحيين؛ والبعض الآخر مأخوذ من سِيَر القديسين والشهداء، في أسلوب مؤثّر للغاية، مع تعليقات المؤلف المنبهة للأذهان، واختتامه لكل قصة بصلاة عميقة تبرز معالم القصة وعبرتها للقارئ.

الطبعة الرابعة ٢٠٠٠

الثمن ٣٥ قرشاً

 ـ مطبعة دير القديس أنبا مقار
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٨٦/٣٠٨٢ ـ الترقيم الدولي × ـ ٠٣٥ ـ ٤٤٨ ـ ٩٧٧